الدلالة الإحاليّة بين مقاصد النّص وكفاءة التلقي

د.عبد الكريم بن محمد جامعة برج بوعريريج

الملخص:

يعالج هذا المقال ظاهرة دلالة النصوص الإحالية وذلك باعتبار الإحالة أهمّ البدائل التي يعوّل عليها في البوح عن مقاصد منتجي النّصوص، ووسيلة فضلى في تشكيل البنية الدلالية، ومن ثمّ فهي إحدى الآليات الاتساق والانسجام بما تضمنه من استمرارية على مستوى تشكيل البنية السطحية ومستوى انسجام البنية الدلالية. وذلك من خلال محاولة الربط الإحالي بين المخزون المعرفي للمتلقي ومعطيات النّصوص اللغوية قيد المعالجة و التحيين.

الكلمات المفاتيح: الإحالة، الدلالة، المقاصد، التلقي، الإنتاج، النصوص،الاستمرارية.

Le résumé :

.Cet article traite du phénomène de la signification des textes locaux comme une référence aux alternatives les plus fiables dans la déclaration des buts des producteurs de textes et la meilleure manière de former la structure sémantique, c'est un des mécanismes de cohérence et de cohésion. Grâce à la tentative de relier le plus haut entre la connaissance du destinataire et les données des textes de langue en cours de traitement et de mise à jour

أوّلا– مفهوم الإحالة:Référence

تعدّ الإحالة من أهمّ البدائل النّصيّة المساهمة في بناء النّص اتّساقا وانسجاما. إذ تساهم بشكل كبير في تحديد مقاصد النّص، وتشكيل بنياته الدلاليّة. فلا يمكننا تصوّر وجود نص في غياب عنصر الإحالة. لكونها سبيل من سبل تحقيق نصيّة النّص ومنحه هويّته وانتماءه. وهي، أي الإحالة معيار صادق في قياس الكفاءة النّصيّة عند مستعملي النّصوص على مستوى الإنتاج والتلقي. فالإجراء الجيّد للإحالة النّصيّة، مؤشر صادق يوحي بامتلاك صاحبه لكفاءة نصيّة إنتاجيّة،وذلك باعتبار

الإحالة – حسب دو بوجراند- استغلال أقل قدر ممكن من الوسائل لصياغة أكبر كميّة من المعلومات"[1] والقدرة على فك شفرات النّصوص وتفسير دلالاتها الإحالية وتأويلها، مؤشر قويّ يدلّ على توفّر كفاءة التّلقي. كما أنّ القدرة على قراءة النّصوص واستيعابها تتوقف على مدى القدرة على التّحكم في وسائل الاتّساق التي تعدّ الإحالة أبـرزها.

ومن ثمّ لم يعد يُنظر إلى الإحالة النّصيّة بالمفهوم الدلالي التّقليدي،[1] الذي تجسّده العلاقة الدلاليّة التي تربط بين الأسماء ومسمياتها. واستنادا إلى مفهوم الإحالة الذي توفره لنا المقاربة النّصيّة، يتمّ إجراء الإحالة النّصيّة عن طريق إنجاز علاقات دلاليّة تربط بين عناصر لغويّة داخل النّص من جهة،وبين عناصر لغويّة داخلية وكيانات خارج النّص تشير إليها هذه العناصر المحيلة من جهة ثانية.

يتمّ التعامل مع الإحالة في ديباجة لسانيّات النّص المعاصرة وتطبيقاتها المختلفة، باعتبارها آلية من آليات البوح بأغـراض المتكلم أو منتج النّص. فالوحدات والعبارات اللغويّة – في حـدّ ذاتها – لا تحيل إلى الأشياء، وإنّما الذي يقوم بإجراء هذه العمليّة هو منتج النّص(المتكلم) عن طريق استعماله لعبارات ووحدات لغوية مخصوصة يحيل بها إلى أشياء معيّنة ،لأنّ" الإحالة ليست شيئا يقوم به تعبير ما ، ولكنها شيء يمكن أن يحيل عليه شخص ما باستعماله تعبيرا معينا"[2]. ليكشف عن المقاصد والأغـراض التي من أجلها أنتج نصّه «إنّ مقصد المتكلّم هو في آخر المطاف المعيار الأساسي في عمليّة الإحالة" [3] وما أكثر المقاصد التي تستوجب من المتلقي البحث عنها خارج نصوصها، وذلك بفضل ما توفره له الإحالة من وسائل وأدوات تساهم في تحقق الانسجام والاتساق النّصّيين بحيث تؤدي هذه الأدوات دورا كبيرا في تنشيط مخزون المتلقي المعرفي في بعديه :الموسوعي والنّصيّ.

ثانيّا – عناصر الإحالة:

لـكي نقوم بإجراء عمل إيحالي نصيّ، لابد من توّفر عنصرين أساسيين مع وجود علاقة دلاليّة تربط بينهما.

والعنصران الأساسيّان هـما:

1- المحيل: وهو العنصر اللّغوي المتواجد داخل فضاء النّص، تميّزه بخاصيّة الافتـقار الدلالي أو المعنوي، وهـذا الافتقار هو الذي يدفع المتلقي إلى البحث عن دلالة المحيل بواسطة ربطه بعناصر نصيّة داخلية أي داخل النّص ذاته، تأتي سابقة أو لاحقة تأتي بعده. أو عناصر خارجية تتواجد خـارج النّص. ويمكن تصنيف العناصر المحيلة ضمن قائمتين:

أ- قائمة مغلقة: وهي ما يعرف بالإشاريات ، وتشتمل على: الضمائر، والأسماء الموصولة، وأسماء الإشارة، والظروف الزمانيّة والمكانيّة،

بـ - قائمة مفتوحة: تضمّ: عناصر معجميّة. الأوصاف المحددة، العبارات اللغوية، أسماء الأعلام، ألـفاظ المقارنة.

2- العناصر المحـــال إليها: ويقصد بها التّصوّرات أو التّمثلات الذهنيّة المرتبطة بعالم الأفكار أو الأشخاص، أو الأشياء، أو الأحداث التي تتواجد في الواقع المادي. إنّ العناصر المحال إليها سواء أكانت خارجية أم نصيّة هي المعوّل عليها في تأويل دلالات النّص، ودفع اللبس عنها.

ثالثا- أنواع الإحـــــــالة:

تنقسم الإحالة من حيث طبيعة الوظيفة التي تؤديها داخل النّص، للمحافظة على استمراريته واتّساقه إلى :

1 - إحالة سياقيّة أو نصيّة داخليّة:

تتحدّد وظيفة هذا النّوع من الإحالة في نسج علاقات تربط بين الوحدات اللّغوية داخل النّص، فهي تربط بين اللّغة واللّغة . مما ينشأ عن هذا التّرابط اتّساق النّص على مستوى بنيته الشّكلية وانسجاما على مستوى بنيته الدّلاليّة. وقد تشترك عدة عناصر داخل النّص في الإحالة إلى عنصر واحد محال إليه يقع خارج النّص، ويعرف هذا النّوع من الإحالة بالإحالة المشتركة، التي تعرّفها لاند كيست بأنّها" مجموعة من الوحدات اللغوية تحيل على الشيء نفسه في العالم الخارجي"[5] وهي عبارة عن عناصر لغوية داخل النّص تشير إلى هويّة واحدة تقع خارج النّص، وتؤدي وظيفتين نصيتين متلازمتين وظيفة على مستوى الدلالي للنص فتحافظ على

استمراريته ونفي التناقض بين أجزاء موضوعه، ووظيفة ثانية تؤدى على مستوى البنية السطحية الغاية منها تحقيق اتساق النّص.

2- إحالة خارجيّة مقاميّة:

تتأسّس الإحالة الخارجيّة على العلاقة الجامعة بين النّص بوصفه كيانا لغويا والواقع أو العالم الخارجي، من خلال ربطها بين عناصر لغوية نصيّة وأشياء تتموقع في العالم الخارجي. ويكون الانتقال فيها من داخل النّص إلى الخارج. والإحالة الخارجيّة " تساهم في خلق النّص، لكونها تربط اللّغة بسياق المقام، إلا أنّها لا تساهم في اتساقه بشكل مباشر"[4]، ولكن بما بفضل مساهمتها البارزة في تحقيق انسجام النّص بواسطة مدّ الجسور الدلالية ن خلال نسبة الوحدات اللّغويّة النّصيّة الداخلية وإلحاقها بالمقامات الخارجيّة التي صاحبت إنتاج النّص أو صاحبت أحداثه ووقائعه.

إن الإحالة الخارجية باعتباره آلية من آليات إنتاج النصيّة هي التي تدفع المتلقي إلى تنشيط معارفه الموسوعية، واستحضار مقامات النّص، ليتسنى له بعد ذلك فهم النّص تشريحا وتأويلا. وذلك لأنّ الانسجام ليس ثاويا في فضاءات النّص، وإنّما تقع مسؤوليّة بنائه بالدرجة الأولى على عاتق المتلقي. يمكننا أن نوضح أنواع الإحالة من خلال نماذج من سورة (المؤمنون)،يقول تعالى: ((قد افلح المومنون(1) الذين هم في صلاتهم خاشعون (2) والذين هم عن اللغو معرضون(3) والذين هم لفروجهم حافظون (4)))

المحيل	المحال إليه	نوع الإحالة
المومنون	عالم الأشخاص(خارج النّص)	إحالة مقاميّة
الذين	المومنون	إحالة داخليّة قبلية
الذين	هم	إحالة داخليّة بعدية
الذين،هم، ضمائر جمع الغائب في :(صلاتهم، خاشعون، معرضون، فاعلون، فروجهم ،حافظون)	المومنون	إحالة مشتركة

رابعا- مستويات الإحالة النّصيّة:

انطلاقا من الاعتقاد الذي ينظر النّص باعتباره حدثا لغويا تواصليا قاصدا، يتمّ من خلال المشاركة التفاعليّة المتبادلة بين أطراف الحدث التواصلي. واستنادا إلى كون الإحالة من أهمّ البدائل النّصيّة التي تتمظهر على مستوى كفايتي التلقي والإنتاج، وظاهرة متعدّدة الأبعاد كتعدّد مستويات النّص/الخطاب ذاته. فإنّ الاكتفاء في تحليل دلالة الإحالة على مستوى واحد، لا يوصلنا إلى تأويل دلاليّ يمكن أن نطمئن إليه أثناء محاولتنا الإمساك بجميع البنيات الدلاليّة للإحالة، سواء كانت داخل النّص أم كانت خارجه. وهذه المستويات ثلاثة، هي:

1- المستوى النّحوي:

يحظى الجانب النّحوي للإحالة النّصيّة بقدر غير يسير من الأهميّة، وذلك لكون الإحالة ظاهرة لغوية بامتياز، تخضع لمعايير نحويّة تسهم في المحافظة على تماسك النّص وانتظامه في شكله الخطيّ .

كما لا يمكن تأويل دلالتها اعتمادا كليّا على الجانب النّحوي وحده، فقد تصادفنا بعض المشكلات على مستوى النّحوي مثل انتفاء التّطابق الضميري الذي تفرضه القيود النّحويّة، مما ينجم عن ذلك لبس دلاليّ، وهو أمر شائع في ما يعرف بظاهرة (الالتفات)، وهذا ما يدفع بالمتلقي إلى البحث عن تأويل دلالات الالتفات في مستويات أخرى غير المستوى النّحوي.

2 -المستوى الدلالي:

إنّ السّمة الغالبة على عمليّة التّشكيل الدلالي للإحالة النّصيّة، هي تلك العلاقة المعنوية التي تنشأ بين العناصر المحيلة والعناصر المحال إليها. ومن ثمّ فإنّ المستوى الدلالي يعوّل عليه كثيرا في إجراء العمليّة الإحاليّة، وفي تأويل دلالاتها النّصيّة، فالروابط الدلاليّة، في رأي هاليداي وحسن _ هي " التي تملك قوة التّرابط في الواقع هي العلاقة المعنوية الضمنيّة" [6] قبل أن تكون الأداة النّحويّة الخاصّة بالربط. فعلى مستوى العلاقات الإحاليّة قد لا نعثر على ذلك التّطابق الذي تفرضه الإحالة على المستوى التركيبي، وتبقى الإحالة في مثل هذه الحالات روابط دلاليّة إضافيّة.

3 - المستوى التّداولي:

يتمّ في هذا المستوى معالجة الإحالة بوصفها فعلا تداوليّا، تحيل إلى عالم التّصورات والأشخاص والأحداث والأشياء التي تتموقع خارج عالم النّص.

يتحقق للنّص انسجامه عبر إجراء المتلقي للعمليّة الإحالية المتمثلة في ربط مكونات النّص الداخليّة (الوحدات اللغوية) بسياقات النّص ومقاماته الخارجيّة، وذلك اعتمادا على مخزونه المعرفي وما يوفره له النّص من معطيات توجهه نحو تأويل سليم للنّص.

يواجه المتلقي صعوبة على مستوى استيعاب دلالة النص وتفكيك بنياته إذا عجز عن إجراء هذه العمليّة بنجاح.إنّ من مظاهرة نجاح عمليّة الإجراء الإحالي قدرة المتلقي على استحضار عناصر النّص الخارجية المتمثلة في ظروف إنتاجه، لكي يوظفها في تفكيك بنيات النّص الدلاليّة أو في إعادة تركيبها بحثا عن الانسجام،"وذلك أنّ الانسجام النّصي يرتبط ارتباطا قويا بالاستعمال، وبهذا يكون له جانبه التّداولي الذي لا يمكن تركه والذي يسمح بإدراج مقام الكلام والعلاقات بين منتج النّص ومتلقيه"[7].

خامسا- مقاصد النّص وإجراء الإحـــالة:

يقوم المتكلم/ منتج النّص بإجراء عمليّة الإحالة بناء على المقاصد والأغراض التي من أجلها أنتج نصّه. انطلاقا من نسج شبكة من الجسّور اللفظيّة والمعنويّة والتّداوليّة التي تتكفل بإنشاء علاقات إحاليّة تربط بين فضاءات النّص المتقاربة منها والمتباعدة، الداخليّة منها والخارجيّة، الحاضرة منها والغائبة؛ سعيا منه لتحقيق نصيّة النّص من خلال آليتي الانسجام والاتّساق" إن مقصد المتكلم هو في آخر المطاف المعيار الأساسي في عملية الإحالة"[8]، وذلك لأنّ العبارات اللغوية لا تحيل في حدّ ذاتها، وإنّما منتج النّص ومالك اللغة هو من يقوم بذلك، لأنّ "الإحالة ليست شيئا يقوم به تعبير ما، ولكنها شيء يمكن أن يحيل عليه شخص ما باستعماله تعبيرا معينا"[9] يشير به إلى عالم الأحداث الذي ترتبط به كيانات النّص، وتفتقر إليه في فهمها وتأويل دلالاتها.

سادسا- المتلقي وتأويل الدلالة النّصوص الإحاليّة:

من بين أهمّ الوظائف النّصيّة التي تضطلع بها الإحالة؛ وظيفة ضمان استمرارية الدلالة النّصية، وذلك من خلال الدور الذي تؤديه أثناء تنشيط مخزون المعرفة النّصيّة على مستوى ذاكرة المتلقي في شكل نماذج وخطاطات ذهنيّة. وبما تؤديه أيضا من دور كبير على مستوى استحضار هذا المحتوى المعرفيّ والاستعانة به وقت الحاجة أثناء معالجة معلومات النّص وتحليل بنياته الدلاليّة.

من وجهة نظر سيميائيّة فإنّ وظيفة الإحالة تستدعيها ضرورة الربط بين عالم النّص الداخلي والفضاءات الخارجيّة التي يرتبط بها تلقيّا وإنتاجا. حيث تجرى عملية الربط بفضل آلية التّمثيل الذّهني ((السميوز)) حسب التعبير البورسي، بحيث يقوم السميوز بمهمة التّوسّط بين العناصر المحيلة ((العلامات)) وما تحيل إليه من تصورات، وأشخاص، ووقائع ، وأحداث...

يستند التّصور البورسي إلى مبدإ سميائي يفترض إمكانية وجود إحالة غير منتهية، لا تتوقف عند حدود تأويل بعينها. حيث يقوم الفعل الإحالي بتشغيل التّمثّلات الذهنيّة، فيتمّ تحرير الدلالة، ويكون من الصعوبة بمكان مضايقة انفلاتها أو والحد انفطارها وانتشارها.

تقوم التمثلات الذهنيّة بوظيفة التّوسط بين عناصر النّص المحيلة والعناصر المحال إليها، فلا تقف عند معنى معيّن، بل تتجاوز حدود تعيينه إلى سيرورات دلاليّة غير منتهيّة. وهذا ما يفسّر مدى تعدّد أوجه القراءة والتأويل على مستوى تلقي النّصوص. والسبب الرئيس لهذا التّعدد هو التباين الحاصل بين المتلقين من حيث درجات تراكم المخزون المعرفي لديهم، وتفاوتهم أيضا في قدرات تنشيط التمثّلات الذهنيّة للأفكار والوقائع والأشخاص المحال إليها.

ومن وجهة نظر تداوليّة فإنّ الإحالة حدث تواصلي تفاعلي، تشكله ثلاثة أنواع من السيّاقات:

-سياق المتكلم أو الكاتب.

- وسياق النّص.

- وسياق المتلقي.

وهذه العناصر الثلاثة يجب مراعاتها أثناء تفكيك بنية الدلالة الإحاليّة للنّصوص،فالمتكلم" حين يتكلم يفترض أن المتلقي له القدرة على فك الخطاب بكيفية ملائم، أي أنه يستطيع أن يستقبله كلا منسجما"[10]، وبما أنّ الانسجام يعدّ مقوّما أساسيّا من مقومات نصيّة النّص، فلا يمكن أن يكون حبيس فضاء النّص الداخلي. وعلى المتلقي تقع مسؤوليّة البحث عنه خارج حدود النّص. ويعتمد المتلقي لكي يحقق للنّص انسجامه على ما يوفّره له النّص من المؤشرات. واستنادا إلى مبدأ التّعاون عند جرايس(Gric) الذي يتأسس على فرضية التّفاهم المسبق بين المتكلم والمخاطب.

يتكفّل المتكلّم/ منتج النّص بإمداد المُخاطَب بكلّ المعلوماتِ التي يمتلكها حول الذوات المحال إليها، والتي يقصدها في خطابها، لتمكين المتلقي من التّعرف عليها، ومن ثمّ تمكينه أيضا من تأويل دلالتها، معوّلا على كفاءة التّلقي التي تتجلى في القدرة على تنشيط مخزونه المعرفي وتسخيره في معالجة معلومات النّص.

وفي الختام نعتقد أنّ الإحالة باعتبارها عملا مشتركا بين النّص ومنتجه وقارئه، تستفزّ ذاكرة الخطاب، وذاكرة القارئ، وترسي قاعدة الحوار بينهما.

انتهاء إلى فضاءات دلاليّة متعدّدة ومتنوعة تتراءى خلفها المقاصد والأغراض.

ج. ب.براون ،ج.يول، تحليل الخطاب. ترجمة محمد لطفي الزليطي، منير التريكي.جامعة الملك سعود الرياض:1997.ص:36.

مراجع البحث:

1- ج. ب.براون ،ج.يول، تحليل الخطاب. ترجمة محمد لطفي الزليطي، منير التريكي. جامعة الملك سعود الرياض:1997.ص:36.

2 - المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه. ص: 37.

4- نقلا عن محمد خطابي. لسانيات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب. المركز الثقافي العربي. الطبعة الثانية. الدار البيضاء – المغرب: .ص:17.2006

5- مفتاح بن عروس. الاتساق والانسجام في القرآن. رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الدولة . تخصص لسانيات النص. جامعة الجزائر كلية الآداب واللغات.قسم اللغة العربية وآدابها. سنة: 2007-2008. ص: 105.

6- المرجع نفسه. الصفحات: 105، 106، 107.

7 - بن عروس.ص: 107.

مفتاح بن عروس. الاتساق والانسجام في القرآن. رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الدولة . تخصص لسانيات النص. جامعة الجزائر كلية الآداب واللغات.قسم اللغة العربية وآدابها. سنة: 2007-2008.ص: 105.

8- تحليل الخطاب. ص:36 .

9- المرجع نفسه. ص: 36.

10- بن عروس. ص: 107.